

أضواء البيان

@ 211 @ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ } . . .
ولما ظن الكفار أن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً ، لا لحكمة تكليف وحساب وجزاء ، هددهم بالويل من النار ، بسبب ذلك الظن السيء ، في قوله تعالى : { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا بِإِذْنِهِمَا بَاطِلًا ذَالِكُمْ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ } . . .
وقد نزه تعالى نفسه عن كونه خلق الخلق عبثاً ، لا لتكليف وحساب وجزاء ، وأنكر ذلك على من ظنه ، في قوله تعالى { أَفَحَسِبْتُمْ أَن نَّزَمَّ مَا خَلَقْنَا كُمْ عِبْثًا وَأَن نَّزَكُمُ إِلَّا إِلَٰهًا لَا تَرْجِعُونَ فَتَدْعَالِي اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ } . . .
فقوله (فتعالى) أي تنزه وتعاظم ، وتقدس ، عن أن يكون خلقهم لا لحكمة تكليف وبعث ، وحساب وجزاء . . .

وهذا الذي نزه تعالى عنه نفسه ، نزهه عنه أولو الألباب ، كما قال تعالى : { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخِذِ الْأَمْلِ وَالَّذِينَ هَارُوا لَآيَاتٍ لَا تُؤْمِنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ قَدْ خَلَقْنَاكُمْ عِبْثًا } إلى قوله : { رَبِّ بَشِّرْنَا مَا خَلَقْتَهُ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقَدْ خَلَقْنَا عَذَابَ النَّارِ } ، فقوله عنهم { سُبْحَانَكَ } أي تنزيهاً لك ، عن أن تكون خلقت هذا الخلق ، باطلاً لا لحكمة تكليف ، وبعث وحساب وجزاء . . .

وقوله جل وعلا في آية الأحقاف هذه : { مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ } ، يفهم منه أنه لم يخلق ذلك باطلاً ، ولا لعباً ولا عبثاً . . .

وهذا المفهوم جاء موضحاً في آيات من كتاب الله كقوله تعالى { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا } ، وقوله تعالى : { رَبِّ بَشِّرْنَا مَا خَلَقْتَهُ هَذَا بَاطِلًا } ، وقوله تعالى : { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ } . . .

وقوله تعالى في آية الأحقاف هذه { وَأَجَلٌ مُّسَمًّى } معطوف على قوله : { بِالْحَقِّ } أي ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا خلقاً متلبساً بالحق ، وبتقدير

